JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

العدد العاشر
(٢٩)-(٣٩)

قصص جعفر الخليلي: قراءة جديدة.

م.د. إحسان ناصر حسين الزبيدي   أ.د جاسم حسين سلطان الخالدي
كلية الإمام الكاظم الجامعة/ أقسام واسط   جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية
Ihsan20172018@gmail.com

ملخّص البحث:

تفترض هذه الدراسة أن ما كتبه (جعفر الخليلي) ليس قصّةً بمفهومها الحديث، وإنّما هو محاولة لكتابتها، أو كتابة خاصّة اختلطت فيها المقالة، والسيرة، والخاطرة، وأن قصصه –كغيرها من قصص تلك الحقبة– لم تستطع توظيف تقنيات السرد وفنياته الحديثة؛ لأسباب تعود إلى التحولات الداخلية والخارجية، والظروف التي فرضتها الحرب العالمية الأولى؛ لذا ليس من الصحيح محاكمة تلك القصص على وفق أحكام النقد الحالية، مما يقلّل من قيمتها ويضع صاحبها في غير مكانه المناسب.

الكلمات المفتاحية: الخليلي– القصة – مقال– المجتمع.

Jaffar Al-Khalili's Fiction: A New Reading

Dr. Ihsan Nasser Hussein Al-Zubaidy   Dr. Jassim Hussein saldan al kaldy
Imam Kadhim University College   Wasit university
Ihsan20172018@gmail.com

Abstract

This paper posits that Jaffar Al-Khalili's stories are not modern fiction. They are, rather, an attempted mixture of diaries, thoughts, short stories, and personalized essays. A snap look at these stories quickly attracts readers' attention to the absence of modern-day techniques of fiction and story-telling. Given the period of this writer, the ongoing world war, and Iraq's the-then-deteriorated conditions, no modern story-telling techniques are available in Al-Khalili's poems.

Keywords: Jaffar Al-Khalili; Iraqi fiction; Literary devices; Late modern novel; Arab literature.

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

المقدمة:

تمتلك القصّة العراقيّة تاريخًا عريقًا بغضّ النظر عن الآراء التي تقطع جذورها عن النثر العربي القديم؛ إذ إن المحاولات الأولى لكتابة قصة فنيّة حديثة تعود للبواكير الأولى من القرن العشرين، فقد أخذ هذا الجنس الكتابي يحظى بمقبولية القرّاء والمثقفين العراقيين لما يمتلكه من قدرة على استيعاب تحولات المجتمع السياسية والثقافية والدينية، فضلا عن قدرته التعبيرية عن الواقع بشكل يتماهى مع طبيعة المتلقي العراقي.

تستهدف هذه الدراسة –عبر تطبيق المنهج الوصفي التحليلي– الكاتب جعفر الخليلي (١٩٠٤-١٩٨٥) في نتاجه القصصي والروائي، والموقف النقدي الراهن منه، بعد سنوات شاسعة قطعتها القصّة العراقية؛ إذ إنّه كان من أوائل الكتّاب العراقيين الذين زاولوا الكتابة القصصية مبكرًا، فلديك من غير الصحيح أن يطلب منه أن يكتب القصّة الفنيّة، بشكل تام، ولا بدّ من الاعتراف أن التعامل مع نتاجه لا يخرج عن أنّها بداية لكتابة قصصيّة لا يمكن أن تبرأ من الهنات التي قد تقع بها أيّة بداية لجنس أدبيّ لم تعرفه الحساسيّة العربية الجديدة.

نبذة عن الخليلي: ولد جعفر الخليلي في النجف الأشرف عام ١٩٠٤م، وهو من أسرة معروفة بالعلم والأدب، إذ كان والده من رجال الأدب والطب القديم، أما أخوه (عباس الخليلي) فكان شاعرا وسياسيا. عمل (جعفر الخليلي) في مجال التعليم لكنّه استقال بعد وفاة والده عام ١٩٣٠، وفي السنة نفسها أصدر صحيفة (الفجر الصادق) لكنها لم تستمر طويلا لأسباب إدارية، ثمَّ أصدر بعدها صحيفة (الراعي) عام ١٩٣٢، والتي تمَّ إغلاقها بسبب انتقاداتها اللاذعة للأوضاع السياسية، والاقتصادية، والدينية، وبعض العادات والأعراف في المجتمع النجفي آنذاك، فتعرّض (الخليلي) لضغوطات سياسية واجتماعية اضطرته إلى الانتقال إلى بغداد، وللأسباب عينها غيّر توجهاته، فأصبح جلّ اهتمامه منصبًا على الأدب والفكر، فأصدر عام ١٩٣٥صحيفة (الهاتف) التي ذاع صيتها، واستمرّ صدورها قرابة العشرين عاما جمعت بين طياتها صنوف الأدب والنثر. تعدّدت اهتمامات الخليلي وتوزّعت نشاطاته بين التاريخ والصحافة والشعر والرواية والقصة حتى عدّه المستشرق الأمريكي (جون توماس هامل) رائد القصة الأول وذلك في أطروحته الموسومة بـ(جعفر الخليلي والقصة العراقية الحديثة) والتي أثبت فيها أن قصص الخليلي تمتاز بالفرادة والمغايرة في الكثير من تقنياتها وشروطها الفنية وعناصرها الموضوعية. أصدر (الخليلي) قصته الأولى (التعساء) عام ١٩٢١ وهو في سن السابعة عشرة، ثمّ توالت اصداراته الفكرية والسردية مثل: (في قرى الجن)، و(الضائع)، و(قرى من فوق)، و(أولاد

JOBS مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م /١٤٤٤هـ

الخليلي)، و(هكذا عرفتهم)، و(اعترافات هؤلاء الناس)، و(كنت معهم في السجن)، و(القصة العراقية قديما وحديثا)، وغيرها من المؤلفات المهمة. توفي (الخليلي) في مدينة دبي في ٢ شباط ١٩٨٥م، ونظرًا لمكانته الأدبية والثقافية الكبيرة أقيمت له مجالس عزاء في أغلب البلدان العربية، ورثاه العديد من الشعراء العراقيين والعرب. (العبيدي، ٢٠١١)، وينظر كذلك، (الخليلي م.، ٢٠١٦)، وينظر أيضا، (المشاط، ٢٠١٧)

قصص جعفر الخليلي: قراءة جديدة

الحديث عن (جعفر الخليليّ) حديث عن الثقافة العراقيّة برمتها، فلم يكن الخليليّ قاصًا وروائيًّا فحسب، بل كان صحافيًّا يُشارُ له بالبنان؛ إذ إنَّه أسَّس عددًا من الصحف، كانت وما تزال قبلة الباحثين الذين يؤرخون لتلك الحقبة الزمنيّة ويدرسون أدبها، وكان كاتبًا مرموقًا، يشهد له كتابه ذو الأجزاء المتعددة (هكذا عرفتهم) (الخليلي ج.، هكذا عرفتهم، ١٩٦٣)؛ إذ حاول أن يؤرشف لعدد من شخصيات زمانه، ممّن التقاهم وعاش بينهم.

كان (الخليلي) باحثًا جادًا يشهد له كتابه "المدخل إلى العتبات المقدسة في العراق" (الخليلي ج.، المدخل إلى العتبات المقدسة في العراق، ١٩٨٧) وهو من الكتب ذات الشأن في مجالها، وكان مختصًا بالقصة ونشأتِها، يؤكّده كتابه "القصة العراقية قديما وحديثًا" (الخليلي ج.، القصة العراقية قديما وحديثا، ١٩٦٢) الذي روى فيه تاريخ القصّة، ليثبت فيه عراقتها على المستوى العالميّ، كما جاء في مقدّمة هذا الكتاب.

غير أنَّ طبيعة دراستنا هذه تقتضي الحديث عنه قاصًا وروائيًّا؛ إذ تتطلب فيما ما تتطلّب قراءة تلك النصوص السرديّة قراءة جديدة بعيدًا عن القناعات المسبقة التي رسّخها في أذهاننا نقّاده العراقيون، من قبيل (عبد القادر حسن أمين) الذي لم ير في مجموعته (أولاد الخليليّ) مثلاً "سوى أنَّها حكايات، و(سوالف) تستهدف غاية تعليميّة يستمدُّ منها العبرة والعظة" (أمين، ١٩٥٦) ود. أحمد عبد الإله الذي لم يخرج عن تلك الرؤية في كتابه (نشأة القصة) وزاد عليها أنَّه "استنفد طاقته فلم يعد يستطيع أن يقدم جديداً" (عبد الإله، ٢٠٠١)؛ لذا أجد من الضروريّ أن أضع جملة نقاط لتكون صالحة للدخول إلى منجز الخليليّ السرديّ، وهي كما يأتي:

-إن قراءة الخليليّ بعين زماننا يعني أننا نشطب على كلِّ نتاجه القصصيّ؛ لأنّنا لم نقرأ– صراحة – قصّة له ذات معايير فنيّة، وبذلك نظلم الرجل، ونخرج عن الموضوعيّة التي يفترض بالباحث أن يكون خاضعًا لها.

–لم تكن القصّة العراقيّة قد قطعت شوطًا من التطوّر، فمازال أكثر القصّاصين العراقيّين، لا تعدو أن تكون القصّة لديهم " وسيلة مهمّة للتعبير عن النوازع والمشاعر الإنسانيّة، وطريقًا جيدًا لشرح الأفكار الاجتماعيّة الاصلاحيّة، وتصوير العيوب والنواقص الاجتماعية" (عبد الإله، ٢٠٠١)

–كانت المضامين الاجتماعيّة والعاطفيّة هي الأكثر هيمنة لدى كتاب القصّة آنذاك؛ لذلك من البديهيّ أن يأتي نتاج الخليليّ مسايرًا لتلك الحساسيّة التي مازالت تتشكّل، أو في طريقها للتشكّل.

هذه النقاط، وربّما هناك أخرى، هي مهمّة عند الدخول إلى عتبة الخليليّ القصصيّة؛ لذا فقد وجدنا أن من المهم أيضا معرفة مفهوم القصّة عند الكتّاب العراقيّين المجايلين للخليليّ، لكي لا نطلب منه أن يحقق ما ليس بوسعه حينذاك؛ إذ كان ذلك هو الأغلب في اتجاهات القصّة العراقيّة، كما رصدها (د . عبد الإله)، و(د .هامل)، وغيرهما على الرغم من تشكّل حسّاسيّة جديدة يمكن أن تكون نواتها كتابات (أنور شاؤل، وذو النون أيوب) ومن قبلهما (محمود أحمد السيد)، فالدكتور (أحمد عبد الاله) يوزّع القصّة العراقيّة بين مرحلتين، أولهما قصص الرؤيا، وتمثّلت ببعض الكتابات، وكان مفهوم القصّة لدى هذا الرعيل لا يعدو أن يكون وسيلة للهو والتسلية ووسيلة للهرب إلى أجواء لا تمسُّ الواقع، ولا تعمل على تغييره (عبد الإله، ٢٠٠١).

والأخرى: ابتدأت من أواخر العشرينيّات ووصف هذا البزوغ بالشحوب والخفوت، وشمل الثلاثينيّات كلّها وعدَّها بداية فجر القصة (عبد الإله، ٢٠٠١)، وكان الخليلي واحدًا من كتّابها، وكان مفهوم القصّة لدى هؤلاء لا يعدو أن "يكون وسيلة للتعبير عن النوازع والمشاعر والعواطف الإنسانية" ذكرنا فيما تقدّم (عبد الإله، ٢٠٠١).

ويجترح من بين هاتين المرحلتين اتّجاه قصصيّ آخر يمثله (جعفر الخليلي) أوضح تمثيل يتجلَّى فيه تأثير الأدب العربيّ القديم والقصص الشعبيّ أكثر من تأثير القصّة الغربيّة المترجمة، وهذا التأثير غير واضح الملامح، وإنما يطلُّ علينا في أجواء الروح العام الذي يسود قصصه، فيحسُّ القارئ أجواء القصص الشعبي وأسلوبه (عبد الإله، ٢٠٠١).

أما في كتابه (الأدب القصصي في العراق منذ الحرب العالمية الثانية)، فإنه يوزع الأدب القصصي منذ الحرب العالمية الثانية إلى مجموعتين، مثَّل المجموعة الأولى ثلاثة أسماء مهمة: عبد الرزاق الظاهر، وصلاح الدين الناهيّ، ونور الدين داود، وكان الطابع التعليمي هو الغالب على كتابات هذه المجموعة إلى جانب لهجة ساخرة قد سادتها (عبد الإله، الأدب القصصي في العراق منذ الحرب العالمية الثانية، ١٩٧٧) .

أمّا المجموعة الثانية فهي أكثر عددًا، وكان أثر التراث واضحًا فيها، وهو ما جعل د.عبد الإله أحمد يسمّي اتّجاه هذه المجموعة بالاتّجاه النجفيّ، ويضعُ الخليليّ على رأس هذا الاتّجاه (عبد الإله، الأدب القصصي في العراق منذ الحرب العالمية الثانية، ١٩٧٧). ولا نرى من الضرورة الاستمرار في تقديم هذه الصورة عن الأَدب القصصيّ في تلك المرحلة، لكن صار واضحًا الجوّ الذي يتنفّسه هذا الكاتب الذي وجد بهذه اليوميّات والحكايات والاعترافات ما يحقّق رغبته في توجيه نقدٍ لاذع لتلك المرحلة بكلِّ ما فيها من عقد اجتماعيّة ودينيّة وسياسيّة، كيما لا نحمِّل الرجل أكثر ممّا يحتمل، فقد جلده د. أحمد عبد الإله وتعامل مع نتاجه كأنّه نتاج مرحلة الناقد نفسه، لذلك من البديهيّ لم يأتِ تصوّره في صالح الكاتب نفسه.

لقد كان فنُّ المقالة في بداية تطوّره في تلك المرحلة؛ إذ لاحت تباشيره في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين على الرغم من ظهوره المبكّر في القرن السادس عشر على يد (مونتي) الفرنسي في الأدب الغربي، ومن (باكون) في القرن السابع عشر، وقد صاحب هذا أن تتحوّل المقالة من أنَّها تجربة ذاتيّة في معالجة الموضوعات التربويّة والخلقيّة على يد (مونتي) إلى أن يكون عنصر الموضوعيّة أشد وضوحًا في مقالات (باكون).

ومع الوقت، وأعني في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بدأت المقالة تنفتح على قضايا المجتمع أكثر فأكثر؛ إذ صار الكتّاب يعنون أكثر بمظاهر الحياة الاجتماعية نقدًا وتحليلًا، وبروز ما يسمى باتّجاه (السخرية والفكاهة)، فضلًا عن اتساع رقعتها لتشمل كلّ مظاهر الحياة.

ولو وقفنا عند تعريف المقالة لدي النقّاد الغربيّين والعرب على حدٍّ سواء لوجدنا أنّها لا تخلو من أن تكون "قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تكتب بطريقة عفوية سريعة، خالية من التكلف، شرطها الأول أن تكون تعبيرًا صادقًا عن شخصيّة الكاتب" (نجم، د.ت).

إنَّ هذا التعريف وغيره يمكن أن يعطي تصورًا ما حول تأثّر الكتّاب العرب والعراقيّين على حدٍّ سواء بهذا الفن الذي صارت الحاجة له مسيّسة منذ أن عرفت الصحافة، وارتبطت أوّل الأمر بطريقة المقال السياسي، ومن ثمّ المقال الأدبي، فالمقال الصحفي.

إنّ ما يهمّنا بعد هذا، أنَّ المقالة وجدت أصداءها في الأدب العراقيّ الحديث، وكان الكتّاب يتبارون في الانعطاف نحو هذه الأنواع الأدبيّة الجديدة؛ إذ صار فنّ القصّة مغريًّا ومثله فن المقالة؛ إذ فتح المجال لهم للتعبير عن كثيرٍ من القضايا التي تمسُّ الوجدان العراقيّ، ولاسيّما إذا ما عرفنا أنّ المجتمع العراقي المدني- إن صحّت التسمية – بدأ يتشكّل مع أواخر القرن التاسع عشر، وبداية الثلث

JOBS مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م /١٤٤٤هـ

الأول من القرن العشرين، نكون قد فسّرنا ظاهرة الخليليّ القصصيّة وغيره ممّن عدّتهم الدراسات النقدية التي تناولت القصّة بأنّها الإرهاصات الأولى لكتابتها.

ومن هنا نجد أنّ معالجة المنتوج الكتابيّ الهائل للخليليّ، يتطلّب من الباحث الشجاعة الكافية للقول: إنَّ الرجل وإن عنون بعض كتبه على أنّها قصص، كما جاء على غلاف كتابه (الضائع) بقوله: "قصة كتبت بلسان فتىً غاب عن أهله ثلاثين سنة" (الخليلي ج.، الضايع، ١٩٤٨)، فإنَّ كتبه الأخرى خلت من ذلك التوصيف تماما، مثل (هؤلاء الناس) الذي قال في مقدمتها: "خير ما في هؤلاء الناس أنهم يحكون جانباً من الحياة يتساوى فيه الرجل والمرأة، والفتى والفتاة، والصبي والصبية" (الخليلي ج.، هؤلاء الناس، ١٩٥٦). ولذلك ما أريد قوله– هنا –إنَّ التعامل مع هذا اللون من الكتابة على أنّها قصص، ويحاكم الخليليّ على أساس ذلك، ويوضع في مكانةٍ ليست له، تفقده الأصالة وسبق التقدّم على غيره، في وقت لم يكن هناك من يتعاطى القراءة والكتابة إلّا النزر اليسير، أقول: إنّ هذا التعامل يجعل الناقد بعيدًا عن الموضوعيّة التي يجب أن يتحلّى بها، ولذلك يقترح هذا البحث أن يتعامل مع تلك الكتابات على أنّها أوّلًا مقالات أدبيّة اجتماعيّة تعالج جملة من القضايا التي تخصُّ المجتمع العراقيّ النامي، أو أنّها مذكّرات وجد الكاتب ضرورة توثيقها، أو إدخالها في باب السيرة الذاتيّة التي أصبحت لونًا أدبيًّا محل عناية الكتّاب والمثقفين بشكلٍ عام، وإن كانت قد توسّلت ببعض مظاهر القصّة من سرد وشخصيات وأمكنة وما إلى ذلك كما هي الحال في قصته (الضايع) التي نستطيع أن نقول: إنّها توافرت على كثير من تقانات الكتابة القصصيّة التي لو أردفها بمثلها لكان واحدًا من كتاب القصّة المهمّين؛ إذ نجح من أن يخلق شخصيّة (الدرويش) التي يظنُّ الكاتب نفسه أنّها شخصية هامشية عبر تسمية قصّته الطويلة بـ(الضايع) الذي لم يظهر على طول القصة الا بزيِّ "الراوية الذي يخبرنا بحكاية الدرويش " كما يقرر د .عبد الإله أحمد (عبد الإله، الأدب القصصي في العراق منذ الحرب العالمية الثانية، ١٩٧٧). في حين أنّنا لو وقفنا على التطوّر الذي أصاب شخصيّة الدرويش والتحولات التي شهدتها والتحليل النفسيّ لها عرفنا أنَّ "الدرويش هو بطل الرواية الحقيقيّ، وأكثر شخصياتها تأثيراً في نفس القارئ، إذ إنه يكشف عن شخصية قادتها معاناتها الخاصة وتجاربها في الحياة إلى أن يتخذ الدروشة سلوكاً في الحياة لا على أنّها وسيلة وخداع" (عبد الإله، الأدب القصصي في العراق منذ الحرب العالمية الثانية، ١٩٧٧).

ويمكن أن نمثّل على ذلك بهذه النصوص ليكون القارئ على بيّنةٍ ممّا قرّرناه وقرّره من قبلنا د . عبد الإله أحمد؛ فضلا عن معرفة الأسلوب الذي أخرج به الخليلي هذه الحكاية؛ إذ يقول: "ذات يوم

وانا عائد من الشيخ إذا بأحد اصدقائي من الأولاد يستوقفني ويشكو لي اعتداء أحد أولاد الموسرين عليه، ثمَّ يلقي بنفسه علي طالباً مني نجدته، وراجياً اغاثته فلم يكن مني الا دفعت إليه (التنكة) التي كان يستعملها الطلاب حينذاك بدلًا من الورق، وهي صفيحة من (التنك)، ودفعت إليه قلمي ومحبرتي الخزفيّة؛ ليبعث بها إلى بيتي ورحت أفتش عن هذا الولد" (الخليلي ج.، الضايع، ١٩٤٨).

إنَّ أسلوب الكاتب ظاهر عليه البساطة، وطريقة الحكي؛ إذ بقي البطل منفردًا وحده بالحكي من دون إعطاء فرصة للآخرين للتعبير عن هواجسهم أو بيان وجودهم في هذه الرقعة الرائجة بالصخب والحركة. ويستمر الراوي على هذا المنوال لسرده قصّة هربه ووصوله إلى بيت أحد أقربائه في (العباسيّة) وعلى هذا المنوال، وبهذه السهولة، واللغة الطيّعة، ومع هذا كلّه، فإن هذه القصّة الطويلة لا تعدو أن تكون مجموعة مقالات جمعها موضوع واحد، وراوٍ واحد، وهو ما يؤكّد مقولة الراحل د.عبد الإله أحمد: من (أنَّها قريبة من المقال)، ونحن نزيدُ عليها بأنَّها مجموعة مقالات، ودليلنا في ذلك أنَّنا لو طبقّنا عليها تعريف المقالة المتقدم "قطعة نثرية قصيرة أو متوسّطة، موحدة الفكرة" لوجدنا (الضايع) عبارة عن قطعةٍ نثريّةٍ قصيرةٍ أو متوسطةٍ، بفضل توزيعها على شكلِ فقرات وعنوانات- كما ذكرتُ- كما أنّها تحملُ آراء صاحبها التي يعشّقها دائمًا في كتاباته المتنوعة.

وكما أنّ منطق البحث هو الذي تحكم بنا سواءً في بنائنا أم في النتائج التي خلصنا إليها فإنَّ اقتطاع أيّ جزءِ من (الضايع) يمكن أن يثبت ما قرّرناه، فـ(قلق) -على سبيل التمثيل لا الحصر- هي مقالة صغيرة، متوسّطة الطول، وتدور حول مغزى واحد، ويمكن أن تقرأ بشكل مجتزئ عن عموم القصّة الطويلة، فهي تسردُ رحلة الفتى إلى بيت أحد أقربائه في إحدى مقاطعات العباسية، بعد أن قرّر الهرب من أبيه وشيخه، حين تعرّض إلى أحد الموسرين بدفع من أحدِ أصدقائه الذي طلب نجدته، ومن ثمَّ قصّة هربه مرّة أخرى من بيت أقربائه، بعد أن علم أبوه بوجوده وطلبه بإعادته إلى النجف مرة أخرى، ولذلك لم يكن أمامه سوى التفكير بالخروج خلسة؛ لأنّه لا يطيق تحمل تبعات فعله الذي تسبّب بتهشيم أنف ولد استقراطيّ. وهكذا نجد أن بناءَها قد بدأ بمقدّمة، بدأت بـ "وكان لأسرتنا صديق من عمد الريف يقيم في إحدى مقاطعات (العباسية) وعلى مسافة عشرين كيلو متراً أو أقل من النجف، وقد اعتاد أن ينزل في ضيافتنا كلما قدم للنجف" (الخليلي ج.، الضايع، ١٩٤٨)، ثم يدخل الموضوع الرئيس الذي لخصناه فيما مرَّ، وخاتمتها التي أوجزها بالقول: "وهكذا أزمعت النية على الهرب حتى من هؤلاء الرفقاء قبل أن يسلموني وليفعل الله ما يشاء" (الخليلي ج.، الضايع، ١٩٤٨)، وما دام الأمر كذلك، فإنّ هذا البحث سيقف على عينات من كتبه الكثيرة، ليثبت هذه الفرضية. ومن هذه الكتب

(هؤلاء الناس) الصادر عام ١٩٥٦م، التي لم تسلم من النقد اللاذع الذي وجّهه إليها د .عبد الإله أحمد بالقول: "مما يتضح من قصص مجموعة (هؤلاء الناس) التي تترك انطباعاً في نفس قارئها، ما يثير السخرية، لتفاهة مضامينها، وسذاجتها" (عبد الإله، نشأة القصة، ٢٠٠١).

تتكون هذه المجموعة من ست عشرة حكاية، وهي على التوالي: (غفوة وانتباهة، وصلوا على محمد، لابدَّ من إحدى اثنتين، وأصابع الكفّ، والكلام الآيل الى البطيخ، والحلقة المفقودة، وأداة الشرط، وما كلّ بيضاء شحمة، ولم تكن هي، والكنز) فمضامين هذه الحكايات لا تخرج عن الاجتماعيّة، والدينيّة، والسياسيّة، ويمكن أن نتمثّل بإحدى هذه القصص؛ لنبين أن ما يكتبه هو بضعة مقالات يحاول فيها عرض مشكلات عصره بلغة سهلة لا تخلو من مزاج سرديّ من ذلك ما كتبه في مقدمة قصته (غفوة وانتباهة) "هذه عشر سنوات تمر على انتهاء الحرب الثانية، وعشر سنوات تكفي لأن يسحب فيها المرء المياه من مسافة عشرات الأميال إلى الأرض السبخة المالحة القاحلة ليغمرها به ثم ليحول تلك التربة البيضاء التي يلمع ملحها كاللجين إلى تربة غرينية من أجود ما ينشدها المزارعون لمزارعهم" (الخليلي ج.، هؤلاء الناس، ١٩٥٦). يؤكد هذا ما قلناه: إنّ تلك تصلح لأنَّ تكون مقالة تتحدّث عن العراق بعد الحرب العالمية الثانية، وهي تصلح كذلك أن تكون مقالاً يحكي حال العراق اليوم بعد أكثر من ستة عقود.

إن أهمّ ما يمكن أن نلحظه على هذه المجوعة أنها تناولت موضوعات ذات صلة بالشأن الدينيّ، وهي من التابوات المسكوت عنها في كلِّ زمن، وهنا تبدو شجاعة الخليليّ حين وقف عندها بعين النقد والتوجيه من غير أن ينسى أن يصوب سهامه إلى المجتمع الدينيّ الذي لا تختلف مشاكله عن مشاكل المجتمع كلّه، وهو ما تجسّد في قصته (صلوا على محمد) التي وصفها د.هامل بأنها "من أفضل ما كتب الخليليّ من قصص؛ فهي صورة مضحكة للزواج ذات لذعة وفطنة وبعد نظر، وما يتضمن في الالعاب التي بلغها الاطفال إلى حد الإيلام المأساوي أنّ الزواج نفسه هو الآخر لعبة سخيفة مضحكة على نحو ما تمثله التقاليد والمجتمع في الوقت الحاضر" (هامل، ١٩٧٦). وتتلخص هذه القصة بأنَّ بطل القصة (غيث) كان بسيطًا طيبًا أرسله والده ليدرس في النجف ليصبح شيخًا، لكنّ زملاءه من المتدينين استغلوا تلك البساطة والطيبة، وحوّلوه إلى رهنٍ للتسلية بأيديهم. ويمكن أن نضع أيدينا على عدد من الأنساق المضمرة بلغة النقد الثقافيّ في تلك الحكاية، ولعلّ أولها أنّ هذا الشيخ المزعوم لم يكن ليتعرّض لذلك، لولا ضعّةُ نسبِه الذي يمكن أن نستشرفه بقول الراوي: "ولعل هذه الخفة وهذا الحلم وسعة الصدر من الشيخ، كان وليد الشعور بضعة النسب" (الخليلي ج.، هؤلاء الناس، ١٩٥٦)

ومن جهة أخرى فهو يطلعنا على كيفيّة الزيجات التي كانت تجري في تلك المجتمعات، ولعلّ (د.هامل) وقف عند هذه الجزئيّة متعجبًا "فإذا به يخطب ويعقد ويتزوج في ثلاثة أيام فقط ..ثلاثة أيام لا غيرها" (هامل، ١٩٧٦).

أما ثالث تلك الأمور، إنّ الكاتب كان شجاعًا حين جعل البطل في نهاية الأمر يحسم أمره من علاقته بالمؤسّسة الدينيّة؛ "انه لم يعد شيخا.. فلقد طرح العمامة جانبا منذ تلك الليلة" (الخليلي ج.، هؤلاء الناس، ١٩٥٦).

أقول: إنَّ توافر عنصر التشويق والحدث النامي لا يجعل فرضيّتنا تتعطّل قليلًا، فثمّة ما يوحي بأنَّ المقالة قد استوفت شروطها الفنيّة وما استعانتها ببعض مظاهر السرد إلّا إنعاش لروح المقالة.

ويبدو أنَّ قضيّة الزواج أو العلاقات الزوجيّة قد سيطرت على حكاية أخرى اسمها (أصابع الكف) وهي تحكي قصّة (إبراهيم وسميرة) التي كانت دائما تضع زوجها موضع الشكّ، لكن إبراهيم دائمًا يبعد عنه الشبهات؛ إذ كان موزعًا وقته بذكاء بين البصرة التي يملك فيها بستانًا يزوره بين فينة وأخرى، ولبنان التي كان يسكنها أخوال له، يجد من الوفاء لأمّه زيارتهم .

وفي إحدى زياراته للبصرة، يتعرض لحادث سيارة، فيموت (إبراهيم) وتظل (سميرة) تلوم نفسها لإفراطها باللوم والشكّ الذي كانت تجده غير مسوّغ لزوجها الذي انتهت حياته من دون أن يتخلى عنها لصالح امرأة أخرى، لكن المفاجأة أن (سميرة) تجد امرأتين لجانبها يتلقين العزاء (الخليلي ج.، هؤلاء الناس، ١٩٥٦)

هذه القصّة ليست خياليّة، بل هي واقعيّة لا يخلو الواقع من شبيهٍ لها. فعلى الرغم من جماليّات السرد في هذه القصّة لكنّها لا تعدو من أن تكون مقالاً أو محض مقال.

ولا نريد أن نكرّر ما نقوله على جميع حكايات هذه المجموعة، فيمكن أن نرصد مجموعة أخرى وهي (من فوق الرابية) لنختم بها هذه الدراسة، وهذه المجموعة تتكوّن من خمسٍ وعشرين قصّة، خمس عشرة منها منشورة في مجموعاته السابقة، التي نقف في قصّتها الأولى (لقمة الحوض) والتي تصوّر جنون أب، لم تنجب له زوجته سوى الإناث، فمع كلِّ ولادة يشتبك الأب معها في معركة، يعرف كلَّ جيرانه من أصحاب البيوت الملتصقة والمتداخلة، التي يجمعها حوض واحد، تفاصيلها بدقّةٍ متناهية. هذا الأب رجل الدين ذو الأصل القفقاسي كان شديد الكره للبنات؛ بسبب إنجاب زوجته المستمر للإناث، فلمَّا أنجبت له في المرّة التاسعة بنتين توأمين انتابته حالة من الغضب الشديد، فتجرّأ ورماهما في بئر آسن، وهذه الحادثة الأخيرة تجعل الأنظار تتوجّه له مرّة أخرى؛ لتتهمه بأنّه– كذلك – كان وراء وفاة

المولودات الثلاث السابقات، الذي عبّرت عنه القصة في نهايتها "أيكون هذا التوأم اول ضحية للرجل وأول لقمة لهذا الحوض؟ أم ان البنات الثلاث اللاتي متن من قبل قد رحن لقمة سائغة لبطن هذا الحوض الثائر دون أن يعلم بذلك أحد" (الخليلي ج.، من فوق الرابية، ١٩٤٩).

وظاهر هنا مقدرة الكاتب في خلق رمزه الخاص وهو (الحوض) الذي كان يرمز إلى" ظروف وجود الإنسان الخالي من الحياة، ذلك الوجود المضطرب المخبول، فأصبح الحوض مستودعًا للأحياء، فضلًا عن الأشياء الميتة المجردة من الحياة" (هامل، ١٩٧٦).

إنّ ما نريد إيضاحه– هنا – أنَّ الكاتب أثار قضيّة اجتماعيّة شائكة ذات أبعاد مختلفة، هي ولادة البنات التي كان المجتمع الجاهلي، يئدهنَّ، كما ورد في القرآن الكريم، وكانت تلك العادة مثار رفض اجتماعيّ ودينيّ، لكن مع كل تلك النقلات الحضارية التي شهدتها المجتمعات الإنسانية، فما تزال تمارس، ولكن من يمارسها؟ رجل دين، درس ونشأ في مدينة دينيّة مقدّسة، فضلًا عن أنَّ الحدث وإن لم نعدم حدوثه في كلّ زمان أو مكان، فإن الصاقه بهذا الرجل له ما يسوّغه، قد يرمي الكاتب إلى أبعد من ذلك، فهو بداية انتقاد مقصودة للمنظومة الدينيّة التي تخرَّج فيها هذا الشيخ المضطرب.

الخاتمة

وبعد، فإنّنا لم نقف على كلّ النتاج القصصيّ للخليلي بالقراءة والتحليل، لكن ثمّة فرصة لغيرنا من الباحثين في أن يُخضع هذا النتاج الثرَّ لدراسةٍ تفصيليّةٍ، في ضوء آليات النقد الثقافيّ مثلاً، ليقف على جرأته الكبيرة في انتقاد عيوب المجتمع العراقيّ، والمجتمع النجفيّ تحديدًا.

إنّ ما يمكن أن نؤشره على قصص الخليلي تعالقها مع الواقع ومحاولة تعرية سلبياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بأسلوب ساخر أحيانًا، وأن تلك القصص كانت كغيرها من قصص تلك الحقبة لم تستطع توظيف الكثير من تقنيات السرد وفنياته الحديثة كالنهايات المفتوحة، وتفتيت الحكاية، وتشظية الزمان والمكان والحدث، فضلا عن الوصف التحليلي المستند على الحوار الداخلي (المونولوج) الكاشف لأغوار النفس الإنسانية، وكسر توقع المتلقي، وغيرها من التقنيات، وهذا قد يعود لتأثرها بالتحولات الخارجية والداخلية، لاسيما بعد الحرب العالمية الأولى والتي فرضت عليها طابعا واقعيا هدفه الإصلاح الاجتماعي.

وفي نهاية تلك السياحة المعتّقة برائحة الماضي، أجد من الضروريّ التأكيد على فرضيّة هذه الدراسة التي تؤكّد على أن ما كتبه الخليلي ليس قصّةً بمفهومها الحديث، وإنّما هو محاولة لكتابتها، أو كتابة خاصّة تختلط بها المقالة والسيرة والخواطر، كيما نجنّبه وطأة النقد التي حاولت كسر قلمه، وقتل نتاجه، ولم تضعه في مكانه المناسب.

المصادر:

1. أحمّد، عبد الإله، الأدب القصصي في العراق منذ الحرب العالمية الثانية (الجزء الأول)، منشورات وزارة الاعلام- الجمهورية العراقية، سلسلة ودراسات، ١٩٧٧م.
2. أحمد، عبد الإله، نشأة القصة، دار الشؤون الثقافيّة العامة، بغداد، ط٣، ٢٠٠١م.
3. أمين، عبد القادر حسن، القصص في الأدب العراقي الحديث، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥٦م.
4. الخليلي، جعفر، الضايع، مطبعة الراعي في النجف، طبعة ثانية مزيدة ومنقحة، ١٩٤٨م.
5. الخليلي، جعفر، القصة العراقية قديما وحديثًا، مطبعة الانصاف، ط١،١٩٦٢م.
6. الخليليّ، جعفر، المدخل إلى العتبات المقدسة في العراق، منشورات مؤسسة الأعلمي، ط٢، ١٩٨٧م.
7. الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم، مربعة الزهراء، ١٩٦٣م.
8. نجم، محمد يوسف، فن المقالة، ط٤، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
9. هامل، جون توماس، جعفر الخليلي والقصة العراقيّة الحديثة، ترجمة وتحقيق: وديع فلسطين، صفاء خلوصي، الدار العربيّة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٧٦م.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م /١٤٤٤هـ

مجلة العلوم الاساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الاساسية